سياسية الملك الصغير أبو عبد الله محمد بن الحسن وأثرها في سقوط غرناطة

م. م. وداد كردي ثلج الحمداني
جامعة تكريت / كلية التربية للبنات

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين ، الذي تركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها الا هالك ، وعلى آله الطيبين وصحابته الغر الميامين وعلى من سار على دربهم واهتدى بهديهم الى يوم الدين .

اما بعد :

فان من سنة الله تبارك وتعالى في خلقه أنه يضع أقواما ويرفع آخرين لحكمة أرادها سبحانه وكلما ابتعدت الامم عن المنهج الذي رسمه الله سبحانه وتعالى واختاره لعباده فانه سيهيىء لهم أسباب الضعف والانهيار جزاء وفاقا لابتعادهم عن المنهج ، وكلما التزمت الأمم بتعاليم رب السماء سيهديهم الله تبارك وتعالى لاسباب القوة والمنعة وهكذا سنته في خلقه ((وتلك الايام نداولها بين الناس)) (آل عمران / ١٤٠).

لهذا اخترت موضوع (سياسة الملك الصغير أبو عبد الله محمد بن الحسن وأثرها في سقوط غرناطة) عنوانا لبحثي هذا وقد تناولت فيه دولة بني الاحمر بشيء من الايجاز لأعطي مقدمة لهذه الدولة التي قامت على انقاض دولة الموحدين في الأندلس(٦٣٥-٨٩٧هـ / ١٢٣٨- ١٤٩٢م) فعرفت بسلاطينها الذين حكموها تباعا ثم بعد ذلك تكلمت عن السلطان أبا الحسن الغالب بالله (٨٦٨-٨٨٧هـ/ ١٤٦٤-١٤٨٢م) وهو والد ــ أبا عبد الله الصغير ــ وسياسته التي اتبعها مع أبناء شعبه من جهه ومن جهه أخرى عن سياسته مع ملك قشتالة فرناندو الخامس (٨٨٤-٩٢١هـ/١٤٧٩-١٥١٦م) ، وتكلمت أيضا عن علاقته بأخيه أبي عبد الله محمد المعروف بالزغل، وبعد ذلك بينت دور السلطان أبي عبد الله الصغير في سقوط غرناطة من خلال حروبه مع ابيه من جهة ومع عمه من جهة اخرى وكذلك المعاهدات السرية التي عقدها مع الاسبان حينما وقع أسيرا عندهم وأيضا بينت دوره في معاهدة التسليم والتي بموجبها سلم آخر معقل اسلامي الى الاسبان لتغرب بهذه السياسية الخرقاء شمس الاسلام على الاندلس ، ولاتطلع الى ان يأذن الله تبارك وتعالى وعسى أن يكون قريبا ان شاء الله .

وفي الختام لا ادعي الكمال في عملي هذا فان الكمال لله وحده وارجو ان أكون قد وفقت في انجاز هذا العمل والله ولى التوفيق

مملكة غرناطة :

ان الحكم العربي الاسلامي في الاندلس انحسر في سلطنة غرناطة[١] التي اصبحت يتيمة بعد ضياع اغلب مدن الاندلس بيد الاسبان النصارى تدريجيا أبتداءا من سقوط طليطلة[٢] عام(٤٧٨هـ / ١٠٨٥م) بيد ملك قشتالة الفونسو السادس فضلا عن فقدان العديد من المدن والحصون الاندلسية بالمعارك في عهد الموحدين، ولهذا ظهرت زعامات محلية أندلسية منها زعامة ابي عبد الله محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الاحمر والملقب بالشيخ والغالب بالله ، فقامت سلطنة غرناطة التي عمرت مايزيد على قرنين ونصف ، توالى على حكمها خلال ذلك مايربو على عشرين سلطانا ، تمتع كثير من هؤلاء السلاطين بصفات جيدة وقدرات ممتازة .[٣]

واعتبر من الغرائب صمود غرناطة على الرغم من صغرها وقلة عدد سكانها ، محافظة على ما بقي للمسلمين من سلطان سياسي ووجود حضاري معطاء .ويمكن ان نرجع صمود سلطنة غرناطة الى عوامل عديدة منها :

١- وجود قيادة قوية من سلاطين بني الأحمر، وكان أولهم محمد بن يوسف وبعد موته لم يكن خلفاءه على نفس المستوى، فبدأت السلطنة بالانهيار .

٢- دربت سلطنة غرناطة سكانها على حمل السلاح والتهيؤ باستمرار لملاقاة العدو ، كما أضيفت الى هذه القوة قوة الوافدين الى سلطنة غرناطة ، وهم المسلمون الفارون امام هجمات الممالك الاسبانية ، فبعد سقوط الحواضر الأندلسية بيد الأسبان لجأ الكثير من مقاتلة هذه المدن الى سلطنة غرناطة واعتبروها ملاذا لهم امام هذه المخاطر فأضافوا قوتهم الى قوة سكان السلطنة المحاربين .

٣- لا ينكر دور عامل الجهاد في سبيل الله الذي التزم به سكان هذه السلطنة ، في صمود هذه السلطنة لفترة طويلة امام هجمات الأسبان ، فعامل الجهاد هو الذي فتح الأندلس من قبل، وهو دوما يحميها من الخطر الاسباني الزاحف .

٤- مساندة ملوك المغرب العربي، وخاصة الملوك الحفصيين الذين ورثوا دولة الموحدين ، وكان ملوك بني مرين خصوصا يكثرون من ارسال المؤن لنصرة مسلمي الاندلس كلما ضغطت عليهم الممالك الاسبانية.[٤]

مؤسس هذه السلطنة محمد بن يوسف بن الاحمر (٦٣٥-٦٧١هـ / ١٢٣٨-١٢٧٢م) وسلطنة غرناطة تشمل ثلاث ولايات كبيرة : ولاية غرناطة في الوسط ، وولاية المرية [٥] في الشرق ، وولاية مالقة [٦] في الجنوب.[٧]

ازداد التناحر بين الاسبان والمسلمين في الاندلس وكثر الثوار والمنازعون لبني الاحمر ، ففي سنة (٦٦٠هـ / ١٢٦١م) قامت مملكة قشتالة بمهاجمة سلطنة غرناطة

الا ان قوات بني الاحمر بمساعدة المجاهدين من أهل المغرب ردت كيد المعتدي ، لكن سرعان ما عقدت مملكة غرناطة الصلح مع الفونسو العاشر سنة(٦٦٥هـ/ ١٢٧٦م)، وتنازل بموجب المعاهدة عن شريش وعدد من الحصون . [٨]

اما الملك الفونسو العاشر(٦٥٠-٦٨١هـ /١٢٥٢-١٢٨٢م) فقد كرر هجومه على حصون غرناطة سنة (٦٧١هـ / ١٢٧٢م) فطلب ابن الاحمر العون من السلطان المريني يعقوب بن عبد الحق الملقب بالمنصور(٧٣٦-٧٤٩هـ /١٣٣٢-١٣٤٨م)، لكن النجدة لم تصل الا بعد وفاة ابن الاحمر ، فوصلت ايام محمد الثاني الملقب بالفقيه[٩] (٦٧١-٧٠١هـ/ ١٢٧٣- ١٣٠٢)[١٠] . والتقت هذه القوات مع القوات القشتالية في معركة استجة سنة(٦٧٤هـ / ١١٧٥م)، وقد انتصرت فيها القوات المرينية والاندلسية بقيادة السلطان المريني على القوات القشتالية ، وبعد هذا الانتصار عادت القوات المرينية بعد ان تركت ثلاثة الآف فارس لمعاونة سلطنة غرناطة في صد الهجمات القشتالية .[١١]

توجس السلطان الغرناطي خيفة من كثرة عبور القوات المرينية الى الاندلس وتدخلها في شؤون غرناطة لذلك سارع محمد الفقيه الى التحالف مع ملك قشتالة الفونسو العاشر الذي انزل قواته في الجزيرة الخضراء[١٢] لمنع القوات المرينية من العبور .[١٣]

لكن السلطان المريني رد على هذا التحالف بان ارسل اسطولا اصطدم مع الاسطول القشتالي مما اضطره الى ترك الجزيرة الخضراء ، فتحالف السلطان الغرناطي مع السلطان المريني الذي اصبحت بموجبه مالقة لبني مرين لتكون قاعدة للقوات المرينية

التي تعبر الى الأندلس.[١٤] وكون المرينين مشيخة عرفت بمشيخة الغزاة وسمي رئيسها بـ (شيخ الغزاة) وهم مجموعة من المجاهدين العابرين الى الاندلس للمرابطة بها.[١٥]

توفي السلطان محمد الفقيه وورثه ابنه السلطان ابو عبد الله محمد الثالث (المخلوع)(٧٠١-٧٠٨هـ / ١٣٠٢- ١٣٠٩م)، فبدأ أمره بمصالحة المرينين أولا وبمحاربة مملكة قشتالة التي عقد معها هدنة امدها ثلاث سنوات .[١٦]

لكن سرعان ما خلع السلطان محمد الثالث ليتولى السلطة بعده السلطان نصر بن محمد (ابو الجيوش)(٧٠٨-٧١٣هـ/ ١٣٠٩-١٣١٤م) ، فتقرب هذا السلطان الى المرينين واعاد اليهم سبته[١٧] ، لكن السلطان نصر ارغم على التنازل عن العرش عام ٧١٣هـ/١٣١٤م ليتولى امرها السلطان ابو الوليد إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن حمدين احمد (٧١٣-٧٢٥هـ / ١٣١٤-١٣٢٥م) الذي كان

مشهورا بالعدل والعفة ، وكان مهتما بأمر الجهاد في سبيل الله . لذلك عندما قامت القوات القشتالية بمهاجمة الاراضي الاسلامية وقد استنجد السلطان إسماعيل ببني مرين ، الا ان المرينين رفضوا مساعدته ، لأنهم طالبوا بتسليم عثمان بن ابي العلاء لما كان منه في حق بني مرين ، الا ان السلطان إسماعيل رفض تسليمه .[١٨]

وبعد اغتيال السلطان إسماعيل الأول سنة(٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م) خلفه ولده محمد الرابع (٧٢٥-٧٣٣هـ / ١٣٢٥ -١٣٣٣م) ، وفي عهده استطاع مسلموا غرناطة بالتعاون مع بني مرين من استعادة جبل طارق سنة(٧٣٣ هـ / ١٣٣٣ م) بعد ان سيطر عليه الجيش القشتالي منذ سنة (٧٠٩ هـ /١٣١٠م)[١٩] اما نهاية السلطان محمد الرابع فلم تكن أفضل من نهاية ابيه فاغتيل في طريق عودته الى غرناطة من جبل طارق فخلفه اخوه السلطان ابو الحجاج يوسف الاول(٧٣٣ - ٧٥٥ هـ /١٣٣٣-١٣٥٤ م) الذي كان من ابرع سلاطين بني الاحمر , وفي عهده انهزم المسلمون في معركة بحرية امام قوات من قشتالة وارغوان , ودخلت جيوشهم سلطنة غرناطة[٢٠] استنجد السلطان الغرناطي بالقوات المرينية التي عبرت لنجدتهم ووقعت معركة بين الطرفين سنة (٧٤١ هـ /١٣٤٠ م) عرفت بموقعة طريف لانها وقعت بالقرب من جزيرة طريف[٢١] وخسر فيها المسلمون وعلى اثرها عقد السلطان ابو الحسن المريني الصلح مع بطرة الاول ملك قشتالة. [٢٢]

ويعد سقوط هذه الجزيرة ضربة قوية للعرب المسلمين لأهمية موقعها فهي تطل على مضيق جبل طارق، ومعنى ذلك فسقوطها يعني انقطاع المغرب عن بلاد الأندلس، وانقطاع العون والمدد من بلاد المغرب تماما .

بعد اغتيال يوسف الاول سنة (٧٥٥ هـ / ١٣٥٤ م) مرت سلطنة غرناطة بوضع مضطرب حيث توالى على عرشها سلاطين ضعفاء لم يكونوا بمستوى المسؤولية اذ خلع بعضهم اكثر من مرة وعقد الصلح بين سلطنة غرناطة ومملكتي ارغوان وقشتالة الاسبانيتين , كالصلح الذي عقده السلطان محمد السادس (الغني بالله) (٧٦١ – ٧٦٣هـ/١٣٦٠- ١٣٦٢ م) مع ملك قشتالة. [٢٣]

تولى عرش غرناطة بعد يوسف الثالث عدة امراء اختلفت قدراتهم بين القوة والضعف وفي عهدهم دخلت غرناطة في العديد من الحروب مع قشتالة خسرت فيها الكثير من حصونها وكان اهمها سقوط جبل طارق بيد القشتاليين سنة (٨٦٧ هـ / ١٤٦٢ م) التي حال دون وصول الامدادات من الدولة المرينية التي بدات بالضعف حتى سقطت سنة (٨٦٩ هـ / ١٤٦٤ م) ومجيء دولة بني وطاس التي لم تكن في مستوى الدولة المرينية من حيث تقديم المساعدات والامدادات الى الاندلس .[٢٤]

وطيلة أكثر من مائة سنة منذ (٧٠٩- ٨٩٧ هـ/ ١٣١٠- ١٤٩٢م) ظل الحال كما هو عليه في سلطنة غرناطة ، معاهدات مهينة متتالية بين بني الاحمر وملوك قشتالة . سنوات طويلة لكن وسبحان الله هذه المملكة لم تسقط .وكان السر في ذلك والسبب الرئيس والذي من اجله حفظت هذه البلاد (وهي من غير مدد ولا عون من قبل بلاد المغرب) هو وجود خلاف كبير وصراع طويل كان قد دار بين مملكة قشتالة ومملكة اراجون (المملكتان النصرانيتان في الشمال)، وكانتا قد قامتا على انقاض الدولة الاسلامية في بلاد الاندلس، وكانت قوة غرناطة قد اصبحت هزيلة جدا الامر الذي لا يبعث على الخشية منها على الاطلاق ، ومن ثم طرقوا انظارهم عنها ، وقد شغلوا بانفسهم وتركوا المسلمين .[٢٥]

الأسرة الحاكمة وأثرها في ضعف السلطنة :

تولى السلطان ابو الحسن الملقب بـ (الغالب بالله) عرش غرناطة بعد وفاة والده السلطان سعد بن محمد بن يوسف النصري في سنة(٨٦٨ هـ / ١٤٦٣ م) وكان عمره يومئذ ثلاثين سنة, ويبدو انه واجه صراعا عنيفا مع اخويه يوسف ابو الحجاج , وابو عبدالله محمد المعروف بـ(الزغل) لكن يوسف توفي وبقي الصراع بينه وبين الزغل الذي كان واليا على مالقة ، كان يضاهي السلطان ابا الحسن في الشجاعة والجرأة وحب النضال اما الزغل فقد لجأ الى ملك قشتالة هنري الرابع سنة (٨٧٤ هـ/ ١٤٦٩م) لمساعدته ضد اخيه فوعده هنري الرابع بالعون فبادر السلطان ابو الحسن بالاغارة على قشتالة سنة(٨٧٥ هـ / ١٤٧٠م) ثم عاد وغزاها في العام التالي . وشغل ابو الحسن في السنوات الثلاثة القادمة بمحاربة اخيه الزغل لكن مالقة خرجت عن طاعة ابي الحسن حيث قامت بها ثورة اعلن فيها الثائرون ابا عبدالله محمد الزغل سلطان عليهم فأصبحت بذلك سلطنة غرناطة منقسمة الى شطرين . [٢٦]

وبعد ذلك عقدت هدنة بين الاخوين , فبقي ابو عبدالله الزغل على استقلاله بمالقة واحوازها واستقر ابو الحسن بعرش غرناطة ,وفي الوقت نفسه كانت قد عقدت هدنة بين النصارى والمسلمين سنة (٨٨٣ هـ / ١٤٧٨ م). وفي هذه الاثناء والمملكة الاسلامية تسير نحو التمزق والتفرق كانت اسبانية النصرانية تسعى الى التوحد خاصة بعد زواج ازابيلا ملكة قشتالة من ملك صقلية فرناندو دوك منت وريث عرش ارغون وبهذا اصبحت اسبانيةالنصرانية قوة واحدة , اما الاندلس فقد كانت تسير نحو الانهيار والانحلال والضعف .[٢٧]

أراد السلطان أبو الحسن ان يقوم بتجديد الهدنة مع الاسبان لكي يتفرغ لاعمال التحصين والانشاء وقد تمت الموافقة على طلبه لكن بشرط ان تعترف سلطنة غرناطة

بطاعتها للمملكة الاسبانية وان تدفع الجزية. لذلك رفض السلطان ابو الحسن طلب الملكين النصرانيين فما كان من القشتاليين الا ان اغاروا على حصن بللنفة واستولوا عليه، ورد السلطان ابو الحسن على هذا الاعتداء باعلان الحرب على قشتالة , وزحف على بلدة (الصخرة) واستولى عليها عنوة وبالرغم من هذا الانتصار فقد عده بعضهم اعتداء لا مبرر له , ويذكر ان فقيها زاهدا ذهب الى قصر الحمراء غداة النصر وصاح (ويل لنا , لقد دنت ساعتك يا غرناطة , ولسوف تسقط انقاض الصخرة فوق رؤوسنا , وقد حلت نهاية دولة الاسلام في الاندلس).[٢٨]

وفي قول الفقيه دلاله واضحة على ان مملكة غرناطة كانت تسيير نحو الانهيار والسقوط ، فاستيلاء ابو الحسن على بلدة الصخرة ، لن يجلب الا الدمار والخراب عليهم ، وان نهاية الإسلام أصبحت قريبة في الأندلس .

وقد بدا السلطان ابو الحسن بالتقهقر والانتكاس وذلك لانه انشغل باللذات والانهماك بالشهوة واللهو والنساء والمطربات وركن الى الراحة وضيع الجند وثقل المغارم وكثر الضرائب بالبلدان ومكس الاسواق ونهب الاموال وشح بالعطاء الى غير ذلك من الامور التي لا يثبت معها الملك . [٢٩]

وكان ابو القاسم رضوان بنيغش وزير السلطان ابو الحسن يوافقه ويظهر للناس الصلاح والعفاف وهو بعكس ذلك وكان ابو الحسن متزوجا من ابنة عمه (عائشة الحرة) [٣٠] وله منها ولدان محمد ويوسف , ويقال انه اصطفى على زوجته رومية اسمها (ثريا)، فهجر ابنة عمه واولادها فادرك ابنة عمه من الغيرة ما يدرك النساء على ازواجهن ووقع بينهما نزاع كبير واقام الاولاد محمد ويوسف مع امهما وغلظت العداوة بينهما, وكان السلطان ابو الحسن شديد الغضب والسطوة وكانت عائشة الحرة تخاف على ولديها منه وبقيت الحال كذلك مدة والامير منشغل باللذات منهمك بالشهوات ووزيره يضبط المغارم ويثقلها ويجمع الاموال وياتيه بها , ويهمل كل من فيه نجدة وشجاعة من الفرسان ويقطع عنهم المعروف والاحسان حتى باع الجند ثيابهم وخيلهم والآت حربهم وأكلوا اثمانها .[٣١] وقتل كثير من اهل الرآي والتدبير والرؤوساء والشجعان من آهل المدن في الاندلس ، وظن ان العدو لا يقوى على مهاجمة بعد ان افترقت كلمة أمرائهم وبعد ان استولوا على مدن المسلمين وحاول كل منهم الانفراد بها.[٣٢]

وبعد ذلك بفترة سعت ثريا عند ابي الحسن الى زج عائشة وولديها الى برج قمارش امنع ابراج الحمراء ، وشدد في الحجر عليهم وعوملوا بمنتهى الشدة والقسوة ، الا ان هذا التصرف أغضب كثير من الكبراء الذين يؤثرون الاميرة عائشة وولديها

بعطفهم وتأييدهم ، وانقسم بهذا الزعماء الى فريقين فريق يؤيد عائشة وولديها وفريق يؤيد السلطان وثريا ، بيد ان الاميرة عائشة كانت وافرة العزم لم تستسلم الى قدرها بل عمدت الى الاتصال بانصارها ، وفي مقدمتهم بنو سراج[٣٣] أقوى اسر غرناطة واخذت تدبر معهم وسائل الفرار . وفي ليلة من ليالي جمادي الثانية سنة(٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م) استطاعت الاميرة ان تفر مع ولديها بمعاونه بعض المخلصين ، واختفت مع ولديها حينا من الزمن حتى قويت دعوتهم ، وظهر ولدها ابو عبد الله محمد في و ادي آش[٣٤] حيث مجمع عصبته وانصاره ، وكانت الحوادث تسير بسرعة مؤذنة باضطرام عاصفة في الدولة الاسلامية .[٣٥]

عندما ادرك الاسبان ضعف دولة بني الاحمر بغرناطة وافتراق كلمة العرب بهذه الديار ، ساروا الى مدينة الحامة[٣٦] فأخذوها غدرا سنة(٨٨٧هـ / ١٤٨٢م) ، ولما بلغ خبرهم لغرناطة خرج اهلها للدفاع عن الحامة ، واشتبكوا مع العدو وضيقوا عليه الخناق ، وكانوا بقيادة السلطان ابي الحسن ، فلما ادرك العدو قوة المسلمين ولوا الادبار من غير ملاقاة .[٣٧]وفي هذه الإثناء اغتنمت عائشة الحرة الفرصة ودفعت بولدها ابو عبد الله محمد الصغير لاعلان الثورة على والده ، ولم يسمح لوالده بدخول غرناطة لذلك لجأ ابو الحسن الى حاكم المرية ، وهناك جمع قوة ضمها الى جيشه وانحاز الى حي البيازين واستمرت الحرب بين الوالد وولده .[٣٨]

ولم تمض الا اشهر قلائل حتى زحف ملك قشتالة الى مدينة لوشة[٣٩] الواقعة على نهر شنيشل في شمال غربي الحامة وعلى مقربة منها . فقام القشتالين بمحاصرتها وانتهى الامر بان عاد النصارى بخسارة فادحة سنة (٨٨٧هـ/١٤٨٢م).[٤٠]

وبعد هذا الانتصار عاد السلطان ابو الحسن الى غرناطة لكن شعبه كان قد انحاز الى ولده الصغير وغلبت دعوته ، ولم يستطع ابو الحسن وصحبه دخول غرناطة لذلك ذهب الى مالقه وكان اخوه الامير ابو عبد الله محمد بن سعيد المعروف بالزغل يدفع عنها جيشا جرارا سيره ملك قشتالة لاقتحامها ، وبهذا فقد جلس ابو عبد الله الصغير محمد مكان والده على عرش غرناطة سنة(٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م) واطاعته غرناطة ووادي آش واعمالها ، وبقيت مالقة على طاعة والده وكان ابو عبد الله يبلغ من العمر نحو الخامسة والعشرين .[٤١]

وهكذا أصبح في سلطنة غرناطة الصغيرة ملكان يتنازعان الملك، ويجران الشعب الى الانقسام والاقتتال، في الوقت الذي كانت فيه جميع القوى النصرانية تتحد لقتالهم .[٤٢]

وفي هذه الاثناء كان فرناندو يسعى الى الاستيلاء على مالقة عقب خسارته في حصن لوشه ، لذلك فانه تقدم على راس جيش كبير ، لكن المسلمين كانوا على استعداد

لمواجهته لذلك خرج محمد بن سعد الزغل في قواته ولقي النصارى ونشب القتال بين الطرفين هزم فيها النصارى هزيمة ساحقة ، وقتل واسر منهم عدة الالاف وذلك في سنة(٨٨٨هـ/١٤٨٣م)، وسميت الموقعة بالشرقية لوقوع المعركة في شرقي مالقة، وكان لانتصار المسلمين أعظم وقع في الاندلس فانتعشت الآمال وسرت الحماسة في كل مكان .[٤٣]

وفي تلك الاثناء شعر ابو عبد الله بضعف مركزه تجاه الانتصار الذي حققه عمه ، لذلك فانه سارع الى الخروج في سنة (٨٨٨هـ/١٤٨٣م)، على راس جيش مؤلف من ثمانية عشر الف مقاتل الى حصن (اللسانة) ، لكن النصارى كانوا مستعدين .ونشبت معركة هائلة بين الطرفين ارتد فيها المسلمون الى ضفاف نهر شنيشل وعند انسحابهم قتل واسر منهم الكثير وكان من ضمن الاسرى الملك ابو عبد الله الصغير الذي اخذه الجند الى قائدهم الكونت (دي كابرا) ، الذي قام بدوره بارسالة الى قرطبة في حرس قوي ووضع الملك الاسير اولا في دار الاسقف المواجه للمسجد الجامع ثم نقل الى احدى القلاع الحصينة وعومل هناك باكرام وحفاوة .[٤٤]

عاد المسلمون الى غرناطة دون ملكهم وسرى الحزن في جميع انحاء غرناطة فاجمع الكبراء والقادة وقرروا استدعاء ابي الحسن ليكون ملكا عليهم ، الا ان ابا الحسن كان قد اعياه المرض وفقد بصره .[٤٥] فتنازل عن عرش غرناطة لاخيه محمد ابي عبد الله الزغل فجلس الزغل على عرش غرناطة سنة (٨٩٠ – ٨٩٢ هـ / ١٤٨٥-١٤٨٧ م)، يدبر أمور السلطنة وينظم الدفاع عنها ، اما ابو الحسن فقد حمل الى مدينة المنكب[٤٦] فأقام بها حتى مات ، وكان العدو في هذه الاثناء قد استطال على بلاد الاندلس وقوي طمعه فيها .[٤٧]

ويمكن لنا ان ندرك ان الزغل كان قد تسلم السلطة في ظروف صعبة للغاية ، ومع انه كان رجلا شجاعا ومقداما لكن الظروف المحيطة بالمملكة كانت اقوى منه ، وعلى الرغم من انتصاراته الكثيرة التي حققها لم يستطع ان يمنع تساقط الحصون الاسلامية بيد الاسبان .[٤٨]

سياسية ابو عبد الله الصغير :

المعاهدات السرية :

تكلمنا فيما مضى عن وقوع ابي عبد الله الصغير في الاسر عندما كان عائدا من احدى معاركه وتم نقله الى الملك الاسباني الذي حاول بدوره استغلال اسيره الى اقصى حد ، وهذا ما تفصح عنه الوثيقة السرية التي عقدت بينهما والتي مفادها ان يتعهد السلطان الصغير بـ :

((ان يعترف الملك الصغير عبد الله بطاعة الملك الاسباني وان يدفع فدية تقدر بنحو ١٢ دوبلا[٤٩] من الذهب ، وان يفرج في الحال عن اربعمائة من اسرى النصارى الموجودين في غرناطة ، يختارهم ملكهم ثم يطلق بعد في ذلك في كل عام سبعين اسيرا

لمدة خمسة اعوام وان يقدم عبد الله ولده الاكبر رهينة مع عدد اخر من ابناء الامراء والاكابر ضمانا بحسن وفائه ، وتعهد الملكان الكاثوليكيان من جانبهما بالافراج عن ابي عبد الله فورا ، والا يكلف في حكمه باي امر يخالف الشريعة الاسلامية ، وان يعاونه في افتتاح المدن الثائرة عليه في مملكة غرناطة ، وهذه المدن متى ما تم فتحها تغدو واقعة تحت طاعة ملك قشتالة وان تستمر هذه الهدنة لمدة عامين ، من تاريخ الافراج عن السلطان الامير)).[٥٠]

ويمكن القول ان عقد مثل هذه المعاهدة كان خطوة كبيرة في سبيل القضاء على سلطنة غرناطة ، لان ملك قشتالة حاول ان يستغل الأسرة الحاكمة في غرناطة ، ويستعين بهم على تنفيذ خططه في تدمير سلطنة غرناطة ، وهذا يدل على مدى الضعف والوهن الذي كانت عليه الأسرة الحاكمة وعلى رأسها الأمير الصغير .

بعد ان اخذ ملكا قشتالة سائر العهود والمواثيق قاموا باطلاق سراح السلطان ابي عبد الله الصغير الذي سار الى بعض الحصون الشرقية،ثم سار الى منطقة بلش شرقي بسطة[٥١] ، وأعلن نفسه ملكا عليها، وفي هذه الإثناء قام أهل البيازين بدعوة الملك ابي عبد الله اليهم وهم دائما كانوا عنصر من عناصر الاضطراب والشغب وكان لهم دور بارز في كل فتنة.[٥٢]

وفي هذه الإثناء انشغل ابو عبد الله محمد الزغل باخماد ثورة البيازين بقيادة ابن اخيه السلطان الصغير،وبانشغال الأمراء بمشاكلهم الداخلية كانت القوات الاسبانية قد استغلت الفرصة واستولت على اكثر من ٣٠٠ حصن في مرج غرناطة، وانتهت ثورة البيازين بان اتفق الزغل مع السلطان الصغير بان تقسم المملكة الى قسمين، فيختص الزغل بحكم غرناطة ومالقة والمرية وبلش مالقة والمنكب ويختص ابو عبد الله الصغير بحكم الانحاء الشرقية.[٥٣]

وسرعان ما تنكر السلطان الصغير لهذه الاتفاقية واخذ يدعوا الملك الاسباني لكي يهاجم مالقة ، الا ان الملك الاسباني سار الى حصن لوشة التابع للسطان الصغير، نظرا لأهميته الإستراتجية لذلك سارع ابو عبد الله الصغير على راس قواته للدفاع عنه. ودخل ابو عبد الله الحصن ليشترك في اعمال الدفاع عن الحامية ، وقد اذاع اهل غرناطة ان ابا عبد الله ما جاء الى لوشة الا ليسلمها لملك قشتالة ويجعلها فداء له .[٥٤] الا ان الحصار استمر لمدة شهر كامل وضعفت همة المدافعين امام ضربات المدفعية

التي استخدمها العدو التي احدثت كثيرا من التخريب بالتحصينات ووسائل الدفاع ، وشعروا بعدم جدوى المقاومة فشرع ابو عبد الله في مفاوضة الملك فرناندو لتقرير شروط التسليم وكان منها :

١- استعداد السلطان الصغير ابو عبد الله لتسليم غرناطة عاصمة ملكه الى الاسبان اذا تمكنوا من اخضاع عمه الزغل .(٥٥)

٢- قبول ابو عبد الله بان يستبدل لقبه الحالي – ملك غرناطة – بلقب صاحب وادي آش اذا استطاع ان يستولي عليها .(٥٦)

٣- تبقى شروط هذه المعاهدة سرية الى ان يتم اخضاع الزغل .(٥٧)

٤- يتعهد ملكا قشتالة من جانبهما بالامان للملك الصغير اذا اراد ان ينتقل الى قشتالة ، وان شاء العبور الى المغرب وان يمده ملك قشتالة بوسائل الانتقال .

٥- ان يؤمن آهل لوشة الذين يرغبون بالمغادرة ، وان ياخذوا ما يستطيعون حمله من امتعتهم واموالهم .(٥٨)

لكن عند انسحاب الملك فرناندو فانه اخذ معه الامير اسيرا .(٥٩) او ان الأمير عبد الله سار بنفسه ليستمد عون ملك قشتالة لتنفيذ خطته في الاستيلاء على عرش غرناطة وتحطيم عمه الزغل ، لذلك فان فرناندو ساند الامير عبد الله الصغير وتوجه بقوته الى حصن بلش مالقة .(٦٠)

لكن الزغل في هذه الفترة كان منشغل بمحاربة الامير الصغير عبد الله ثم راى انه لا فائدة من استمرار القتال مع ابن اخيه لذلك توجه الى نجده حصن بلش ، الا انه عند وصوله وجد ان اهالي الحصن كانوا قد سلموا الحصن خاصة بعد دخول القوات الاسبانية الى الحصن ووافقوا على شروط التسليم ، وكان ذلك في سنة (٨٩٢هـ/ ١٤٨٧م)، لذلك وجد الزغل ان لا فائدة من بقاءه خارج الحصن لذلك سارع بالعودة مع جيشه الى غرناطة لكنه وجد ان اهالي غرناطة قد دعوا السلطان الصغير عبد الله بعد عودته من الاسر لكي يتولى العرش مكان عمه الزغل ، لذلك عاد مع جيشه الى وادي آش وبهذا عادت سلطنة غرناطة الى الانقسام من جديد الى قسمين غرناطة واعمالها ويحكمها ابو عبد الله الصغير، ووادي آش واعمالها ويحكمها عمه الامير محمد بن سعد الزغل ، وتحقق لملك قشتالة ما كان يريد من تمزيق الدولة الاسلامية في الاندلس تمهيدا للقضاء عليها .(٦١)

ثم ما مرت الا شهور حتى استرق ملك اسبانيا أهل مالقة جميعا(أخذهم رقيقا وكانوا مسلمين) ، ولم يرعى المعاهدة التي تمت بينه وبين الصغير وان هذا والله لديدنهم وطبيعتهم ، وكما قال تعالى ((لا يرقبون في مؤمن الا ولا ذمة))(٦٢) .

وبعد ان سقط حصن بلش مالقة سارعت الجيوش الاسبانية الى محاصرة مالقة سنة(٨٩٢هـ/١٤٨٧م) ، وكانت مالقة تدين للزغل صاحب وادي آش ولم يستطع من نجدتها لانه كان يخشى من غدر ابن اخيه الملك الصغير ، لذلك سقطت مالقة بيد القوات القشتالية .[٦٣]

ولم يكن حال بسطة بافضل من مدينة مالقة فقد توجهت اليها القوات الاسبانية وسقطت بايديهم في سنة (٨٩٥هـ/١٤٩٠م)، دون ان يستطيع الزغل نجدتها ايضا .[٦٤]

وكان لتتابع سقوط المدن الاندلسية تباعا بيد النصارى نتيجة حتمية لاستسلام الزغل ولكن بصورة مخزية أثرت على تاريخه في النضال ومقارعة النصارى وكان لصهر الزغل (يحيى النيار) دور بارز في سقوط وادي آش سنة (٨٩٥هـ/١٤٩٠م)، واستسلام الزغل لان يحيى النيار كان قد سقط في شباك اغراءات الملكة ووعودها من جهة ومن جهة اخرى فقد ذكرته الملكة بان اصل امه اسباني واقنعته بالتنصر ، وتم لها ذلك فأخذ يمارس دوره في اقناع محمد بن سعد الزغل بعدم جدوى المقاومة ، ولذلك عقد الزغل معاهدة مع ملكي قشتالة.[٦٥] على نمط المعاهدة التي عقدها مع صهره يحيى النيار وخلاصتها ((ان يستقر الزغل سيدا في مدينة اندرش وما اليها ، وان يكون له الفا تابع من بني وطنه ،وان يمنح معاشا سنويا كبيرا ، وان يمنح دخل نصف ملاحات بلدة الملاحة ، وان يرسل في استحضار ابنائه الامراء من غرناطة نظرا لخصومته مع ملكها ، وان تكون جميع املاكه واملاك ذويه في غرناطة حرة من كل حق ومغرم ، وان تكون هذه العهود ملزمة لملكي قشتالة ولعقبهما من بعدهما ، واخيرا ان يوافق البابا على هذه العهود)).[٦٦]

وكانت نهاية الزغل نهاية مأساوية لانه باع كل امتيازاته للملك بسبب وضعه المهين ، ورحل الى المغرب لتكون نهاية حياتة فيها.[٦٧] وقبض عليه سلطان فاس [٦٨] وسمل عيناه جراء خيانته وتركة يستجدي الناس للعيش [٦٩] .

ان تسليم الزغل لملك قشتالة كان ينبأ بقرب سقوط غرناطة ، لأنه خائن لبلاده عندما تنازل هو وقواده عن البلاد التي كانت تحت أيديهم طوعا مقابل فيض من المال . وكان يسعى من وراء ذلك للانتقام من ابن أخيه الصغير لكي يجعله تحت رحمه ملك قشتالة وينهي حكمه وملكه .

- معاهدة التسليم :
- سقوط غرناطة:

دب الضعف في اوصال دولة الاسلام في الاندلس ، وسرى الوهن في اطرافها ، وراح العدو القشتالي يتربص بها ، وينتظر تلك اللحظة التي ينقض فيها على الجند

الواهن ، فيمزقه ويقضي عليه ، ولم تصرفه القرون الطوال عن تحقيق امله الطامح الى ازالة الوجود الاسلامي في الاندلس ، فلم يكد ينتصف القرن السابع الهجري حتى كانت ولاية الاندلس الشرقية والوسطى في قبضة النصارى القشتاليين ، واصبحت حواضر الاندلس الكبرى اسيرة في قبضتهم ، وحيث سقطت العديد من الحواضر التي كانت تموج علما وثقافة وحضارة .[٧٠]

ولم يبق من دولة الاسلام هناك سوى بضع ولايات صغيرة في الطرف الجنوبي من الاندلس ، قامت فيها سلطنة صغيرة عرفت بسلطنة غرناطة ، شاءت الاقدار لها ان تحمل راية الاسلام اكثر من قرنين من الزمان، وان تقيم حضارة زاهية وحياة ثقافية رائعة،حتى انقض عليها الملكان فرديناند وايزابيلا وحاصرا بقواتهما غرناطة في ١٢ جمادي الآخرة سنة(٨٩٦هـ /١٤٩١م)،حصارا شديدا واتلفا الزروع المحيطة بالمدينة ، وقطعا أي اتصال لها بالخارج، ومنعا أي مدد يمكن ان يأتي لنجدتها من المغرب الأقصى، حتى تستسلم المدينة ويسقط اخر معقل للاسلام في الاندلس . ولم يجد السلطان عبد الله الصغير حلا سوى ان يحاربهم ، فلو اطاع أمرهم واستجاب لمطلبهم ترك البلاد وترك الحكم،وهذا ما لا يريده ولا يقدر ان يتحمله، فاقتنع بعد التفكير وجدال طويل مع وزرائه ان يدافع عن غرناطة.[٧١]

- غرناطة تلفظ أنفاسها :

ولكن أهالي غرناطة كانوا قد مروا بمعاناة قاسية خلال اشهر الحصار ، وقامت القوات الاسبانية بتحطيم وحرق الحقول المجاورة للمدينة مما سبب مجاعة رهيبة بين سكان غرناطة , ولهذا السبب اكلوا الخيول والكلاب والقطط خاصة وان المؤن كانت قد انقطعت عنهم وخاصة التي كانت تاتيهم من جهة جبال شلير[٧٢] بسبب نزول الثلج والامطار , الامر الذي اضطرهم الى قبول المفاوضات مع العدو من اجل وقف القتال . لم تكن غرناطة تملك سلاحا اقوى من الشجاعة ولا امضى من الصبر في المواجهة والثبات عند اللقاء , فصمدت الى حين وظلت المدينة تعاني الحصار زهاء سبعة أشهر, وتغالب نكباته بصبر ويقين , وتواجه الجوع والبلاء بعزيمة لا تلين, وحاول الفرسان المسلمون ان يدفعوا هجمة النصارى الشرسة بكل ما يملكون خارج اسوار المدينة لكن ذلك لا يغني من الامر شيء , فالاحوال تزداد سوء والمسلمون تتفاقم محنتهم , وانقطع الامل في نجدتهم من بلاد المغرب. [٧٣]

وفي ظل هذه المحنة القاسية تداعت اصوات بعض القادة الى ضرورة التسليم حفاظا على الارواح وكان سلطان غرناطة ابو عبدالله محمد وبعض وزراءه يتزعمون هذه الدعوة وضاع في زحام تلك الدعوة المتخاذلة كل صوت يستصرخ البطولة والفداء في

النفوس ويعظم فيه التضحية والكرامة في القلوب , فاتفق القائمون في غرناطة على اختيار الوزير ابو القاسم عبد الملك ومعه الوزير يوسف ابن كماشه للقيام بمهمة التفاوض مع الملكين الكاثوليكيين وكان ذلك في سنة(٨٩٦ هـ / ١٤٩١ م)،خاصة وان االسلطان الصغير واعوانه كانوا قد صرحوا بان الشعب لايقوى بعد على تحمل ويلات الدفاع وانه لم يبق سوى التسليم او الموت فاتفقوا على التسليم . (٧٤)

الا انه كان هناك من يرفض التسليم وهو القائد موسى بن ابي غسان الذي قاد انتفاضة اسلامية قوية ، دعا الناس فيها الى الجهاد ، وبدأ يحمسهم على الموت في سبيل الله ، فاستجاب له الشعب وتحرك للدفاع عن غرناطة ، وطيلة سبعة اشهر كاملة ظل اصحاب الانتفاضة يدافعون عن حصون غرناطة ضد الهجمات النصرانية الشرسة، وكان الصغير ينظر الى الامور ويستطلعها من بعيد حال الواقف المتفرج ولم يستطع ان يفعل شيئا ،وكان يتمنى ان يجد حلا أو مخرجا يستر به ماء وجهه ولكنه لا يجد ، الا انه بعد سبعة اشهر يجد بريق أمل كان قد تمنى مثله ، حيث أرسل فرناندو الثالث وايزابيلا رسالة يطلبان فيه ان يسلم غرناطة لهما على أن يضمنوا له ولقومه ولجيشه الامان. (٧٥)

وليس ثمت شك في ان هذين الملكين القشتاليين كانوا ورآء سريان روح التخاذل واشاعة اليأس في غرناطة , وتهيئة الاوضاع لقبول التسليم , واستخدما في ذلك كل وسائل الاغراء مع السلطان ابي عبد الله الصغير وبعض خاصته ، وقد استمرت المفاوضات بضعة اسابيع وانتهى الفريقان الى وضع معاهدة التسليم ، وقد وافق الملكان عليها في ٢١ من محرم (٨٩٧ هـ / ٢٥ نوفمبر ١٤٩٢ م).(٧٦) , وكانت المفاوضات تجري في سرية تامة خشية ثورة اهل غرناطة , وحتى تحقق غايتها المرجوة , وقد تضمنت المعاهدة شروطا عديدة تبلغ سبعة وستين شرطا حسب المصادر العربية (٧٧) او ستة وخمسين شرطا حسب المصادر القشتالية (٧٨) ومن ابرز ما تضمنته هذه الوثيقة التي بموجبها سقطت آخر المعاقل الاسلامية بالاندلس وهي :

١ــ ان يتعهد السلطان غرناطة والقادة والوزراء والفقهاء والعلماء وكافة الناس ، بان يسلموا طواعية واختيارا خلال ستين يوما من تاريخ المعاهدة ، قلاع الحمراء والحصن وابوابها وابراجها الى الملكين القشتاليين ، على ان يقدم السلطان الصغير خمسمائة شخص من صحبه الوزير ابن الكماشه وقبل تسليم الحمراء بيوم واحد كرهائن لمدة عشرة ايام ، وفي النهاية يعود اولئك الرهائن احرارا .

٢- متى تم تسليم الحمراء والحصن ، يرد الى السلطان الصغير ولده الذي اخذ رهينة وكذلك سائر رهائن المسلمين الموجودين لدى الاسبان .

٣- يتعهد ملكا قشتالة بان يتركوا السلطان وحاشيته والعلماء وسائر الناس تحت حكم شريعتهم وان يحتفظوا بتقاليدهم وعوائدهم .

٤- يحق لسكان غرناطة الذين يريدون العبور الى المغرب بيع املاكهم ويحق للملك القشتالي شرائها .

٥- ان يسلم السلطان ابو عبد الله الصغير وقت تسليم المدينة سائر الاسرى النصارى الموجودين تحت يديه .

٦- لا يسمح لنصراني ان يدخل مساجد المسلمين .

٧- لا يقهر من اسلم من الرجوع الى النصرانية .

٨- لا يولى على المسلمين يهودي او يمنح سلطة او ولاية عليهم .

٩- ان لا يؤاخذ المسلم بذنب غيره .

١٠- ان لا يدفع المسلمون الضرائب اكثر مما كانوا يدفعون لسلاطينهم المسلمين .

١١- ان لا يرغم مسلم او مسلمة على اعتناق النصرانية .

١٢- ان لا يكلف مسلم باستضافة الجنود النصارى .

١٣- لا يمنع مؤذن ولا مصل ولا صائم ولا غيرهما من امور الدين .

١٤- يجب على كل من عليه دين او تعهد ان يؤديه لصاحب الحق ولا يحق لهم التحرر منه .

١٥- ان يوقع على كل الشروط صاحب روما وان يضع خط يده عليها .

وقد كانت في نهاية المعاهدة نبذة خلاصتها ان يتعهد ملكا قشتالة بدينهما وشرفهما الملكي بالقيام بكل مايحتويه العهد من النصوص ، ويوقعان المعاهدة باسمهما ويمهرانها بختمهما .[٧٩]

ويتعجب المرء حين يعلم ان ابا القاسم بن عبد الملك ومساعده في المفاوضات الوزير يوسف ابن الكماشه ، كان سلوكهما مريبا، يقدمان المنفعة الشخصية على الصالح العام، فقد كتبا الى الملكين القشتاليين خطابا يؤكدان فيه اخلاصهما وولاءهما واستعدادهما لخدمة الملكين حتى تتحقق رغبتهما .

وهذا خير دليل على مدى التخاذل والذل والطمع الذي ملئ نفس الوزير ومساعده ، فخضعوا للملكين وباعوا دينهم في مقابل حصولهم على النفع المادي الرخيص .

وفي الوقت الذي كانت تجري فيه مفاوضات التسليم ، عقدت معاهدة سرية أخرى، منح فيها الملك ابو عبد الله الصغير وافراد أسرته ووزراءه منحا خاصا من الحقوق والامتيازات منها (ان يمنح الملكان الكاثوليكيان لابي عبد الله ولاولاده واحفاده وورثته الى الابد ، حق الملكية الابدية فيما يملكانه من ضياع في برجة ومرشانة وكل ما

يخصها من الضرائب وحقوق الريع ، وما بها من دور والاماكن والقلاع لتكون كلها له ولاولاده ... وان يعطى الملك المذكور ابو عبد الله هبة قدرها ثلاثون الف جنيه قشتالي من الذهب ، يبعثان بها عقب تسليم الحمراء وقلاع غرناطة التي يجب تسليمها ، وذلك في الموعدد المحدد) وغيرها كثير من المنح والامتيازات . (٨٠)

تلك هي شروط التسليم التي وضعت لتسليم آخر القواعد العربية الإسلامية في الأندلس، وتلك هي المنح والامتيازات التي منحت لآخر ملوك غرناطة.

وما كادت تذاع انباء الموافقة على تسليم غرناطة حتى عم الحزن ربوعها ، واشتعل الناس غضبا حين تسربت انباء هذه المعاهدة السرية ، وما حققه السلطان من مغانم ومكاسب رخيصة ، فسرت بين الناس الدعوة الى الدفاع عن المدينة لكن بعد فوات الاوان ، وفي نكسة كبيرة وذل يتفق السلطان مع ملك قشتاله على تسليم المدينة قبل الموعد المحدد في ٢ ربيع الاول (٨٩٧هـ/٢ يناير ١٤٩٢م).(٨١)

وفي هذا اليوم استعد الجيش القشتالي لدخول المدينة ، واطلقت المدافع في قصر الحمراء طلقاتها ايذانا بالاستعداد للتسليم ، ودخلت القوات المسيحية، واتجهت توا الى قصر الحمراء وما ان دخلت القوات حتى رفعت فوق برج القصر الاعلى صليبا فضيا كبيرا ، وهوالذي كان يحمله الملك فرناندو خلال معاركه مع غرناطة ، واعلن المنادي بصوت قوي من فوق البرج ان غرناطة اصبحت تابعة للملكين الاسبانيين ، وان الحكم العربي الاسلامي قد انتهى من بلاد الاندلس.(٨٢)

وباستيلاء القشتاليين على غرناطة طويت أخر صفحة من تاريخ الدولة العربية الإسلامية في الأندلس وقضى على الحضارة الاندلسية الباهرة وآدابها وعلومها وفنونها .

اما ابو عبد الله الملك الصغير الخاسر لغرناطة ، الذي قدم مفاتيح حصن الحمراء للملك الاسباني فرناندو قائلا له : (انهما مفاتيح هذه الجنة وهما الاثر الاخير لدولة المسلمين في اسبانيا ، وقد اصبحت ايها الملك سيد تراثنا وديارنا واشخاصنا ، وهكذا قضى الله ، فكن في ظفرك رحيما عادلا).(٨٣)

وعند خروج الملك الصغير خرجت معه السلطانه زوجته وهي لابسه ثوبها الزاهي فغادروا الحمراء تحف بهم معالم الهيبة ، وبينما السلطان منصرف حانت منه التفاته اخيرة الى عاصمة ملكة ، فتاؤه وجرت عبراته ، فقالت له والدته : (يحق لك ان تبكي كالنساء على ملك لم تستطع ان تحافظ عليه كالرجال)(٨٤) وصار هذا الموقع اثرا تاريخيا وعنوان للحزن في التاريخ العربي ويعرف اليوم عند الاسبان " زفرة العربي الآخيرة " وقد هاجر ابو عبد الله الصغير الى بلاد المغرب ،وهناك اعتقله ملكها بتهمة

الخيانة لبلاد المسلمين ، ثم وضعه في سجنه . وكما يقول المؤرخون فقد شوهد واولاده بعد ذلك بسنوات يشحذون في شوارع المغرب[٨٥]، فلعنه الله على هذا الذل ، ولعنة الله على هذا الترك للجهاد اللذين يوصلان الى هذا المثوى وتلك المنزلة ، وما كان من امر فقد اندثرت حضارة ما عرفت اوربا مثلها من قبل ، انها حضارة الدنيا والدين ، وقد انطوت صفحة عريضة خسر العالم اجمع بسببها الكثير والكثير ، وقد ارتفع علم النصرانية فوق صرح الاسلام المغلوب ، وافل والى الان نجم دولة الاسلام في الاندلس .

وقد توفي السلطان في مدينة فاس سنة(٩٤٠هـ/ ١٥٣٥م) ودفن بازاء المصلى خارج باب الشريعة.[٨٦]

الخاتمة

الحمد لله القاهر فوق عباده ، مذل الجبابرة بسلطانه والصلاة والسلام على أشرف رسله وأنبياءه ، وعلى اله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين .

أما بعد :

فقد آن الأوان أن نسطر أهم النتائج التي توصلنا اليها من خلال جولتنا هذه مع الفردوس المفقود (الأندلس) بعد ضياع آخر معاقلها (غرناطة) وهي :

١- بعد ضعف الموحدين بالمغرب سرى الضعف في كيان هذه الدولة ليصل الى بلاد الأندلس فتضطرب الأمور فيها ولم يستطع الموحدون عمل شيء لذلك قامت دولة بني الأحمر على أنقاض دولتهم بتأسيس محمد بن يوسف بن الأحمر لها عام ٦٣٥هـ / ١٢٣٨م .

٢- انشغل بعض سلاطين غرناطة باللهو والانهماك بالشهوة والنساء وترك أمر الرعية والخلود الى الراحة والدعة ، وهذا بطبيعة الحال يؤدي الى تضييق الجيش واثقال المواطنين بالمغارم وفرض الضرائب من اجل توفير المال لملذاته ، وهذه الأفاعيل لا يمكن ان يثبت معا ملك .

٣- خيانة بعض الوزراء للملك والرعية على حد سواء (كحال وزير ابي الحسن الغالب بالله فهو لا يستطيع إغضاب الملك بايصال حقيقة مآل اليه أمر الرعية ، ثم يغضب الناس على الملك من خلال أظهار الصلاح والعفاف للناس وفي الحقيقة هو على عكس ذلك .

٤- كان من أسباب سقوط غرناطة صراع العائلة الحاكمة فيما بينها ابتداءا من زوجتي السلطان الغني بالله (عائشة الحرة وثريا الرومية) مما أدى الى وجود تكتلات مع كل واحده منهن تدعو الى نصرة صاحبتها .

٥- كان من أسباب الصراع الداخلي للأسرة الحاكمة أن اشتعل فتيل الأزمة بين الابن وأبيه مما حدى بالابن بإعلان الثورة على أبيه بعد خروجه لمقاتلة الأعداء ولم يسمح له بدخول المدينة بعد عودته لأنه أعلن نفسه ملكا على المدينة .

٦- انقسمت البلاد في حكمها الى قسمين بسبب الحرب الدائرة بين العم (الزغل) وابن أخيه (الملك الصغير) لذلك اخذ كل واحد منهما جهة من البلاد ليحكمها بعد اتفاقهما على ذلك . فأصبح في السلطنة ملكان يتنازعان الملك ويجران الشعب معهما الى الانقسام والاقتتال في الوقت الذي كانت فيه القوى النصرانية تعمل للاتحاد فيما بينها لمقاتلة المسلمين .

٧- سنحت الفرصة أمام النصارى لاحتلال البلاد من خلال استفادتها من الصراع القائم بين أفراد العائلة المالكة ، لذلك سقط في غضون فترة قصيرة أكثر من ٣٠٠ حصن من حصون مرج غرناطة بيد الأعداء .

٨- بعد وقوع السلطان الصغير في الأسر تعهد للملكين الكاثولكيين بمعاهدة سرية بطاعة الملك النصراني،وان يدفع لهما الجزية التي تقدر(١٢) دوبلا من الذهب، وان يفرج عن (٤٠٠) أسير للنصارى موجودين في غرناطة ، وان يقدم ولده الأكبر رهينة لضمان سير الاتفاقية السرية .

٩- بعد طول تضحية وفداء ونضال ضد الأعداء قام بها الزغل بختام حياته بخيانة لأبناء جنسه ووطنه وذلك ببيعه بلاده بدراهم معدودات ، وكان الله عز وجل أراد له ان يختم حياته بسوء ، وقد أذله الله سبحانه في الدنيا عقوبة المستعجل قبل

١٠- الآخرة بان قبض عليه حاكم مدينة فاس فسمل عينيه ثم اخذ يستجدي الناس من اجل المعيشة ، وهذه النهاية الطبيعية للخونة .

١١- كذلك ختم الباري عز وجل للملك الصغير حياته بان جعلها خاتمة سوء حينما سلم مملكة غرناطة للعدو وهي المملكة التي طالما قارعت الأعداء وإذاقتهم الويلات تلو الويلات ، ولكن بسياسية الخرقاء وحب الذات والتسلط على رقاب الناس سقطت مملكة غرناطة بعد طول كفاح ونضال باتفاقية سرية لم تطبق على ارض الواقع بندوها التي اتفق عليها لذلك ذاق المسلمون من أصناف العذاب في تلك البلاد ما لا يعلمه الا الله وحده .

الهوامش

١. غرناطة : وهي من اقدم مدن البيرة بالاندلس من أعمال الأندلس وأعظمها وأحسنها وأحصنها ، يشقها النهر المعروف بنهر القلزم في القدم .البغدادي: صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي (ت ٧٣٩ هـ / ١٣٤٠م)،مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع ،تحقيق:علي محمد البجاوي ، مطبعة دار الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه ، (القاهرة ، ١٩٥٤ – ١٩٥٥م) ، ج٢ , ص٩٩٠ .

٢. طليطلة :هي مركز جميع بلاد الاندلس ، لان منها الى قرطبة تسع مراحل ومنها الى بلنسية تسع مراحل ايضا ،ومنها الى المرية تسع مراحل ايضا ، وهي مدينة حصينة.الحميري : ابو عبد الله محمد بن عبد المنعم ،الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق : احسان عباس،مطبعة ناصر للثقافة،(بيروت، ١٩٨٠م) ، ص٩٩٣ .

٣. الحجي : عبد الرحمن بن علي ، التاريخ الاندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة (٩٢ – ٨٩٧هـ/ ٧١١-١٤٩٢م) ، مطبعة دار القلم (بيروت ، ١٩٧٦م) ، ص٥١٥ .

٤. الحجي ، المرجع نفسه ، ص٥١٩ .

٥. المرية : وهي محدثة بالاندلس ، امر ببناءها امير المؤمنين الناصر لدين الله عبد الرحمن بن محمد عام ٣٤٤هـ / ١٠٤٧م ، وهي من اشهر مراسي الاندلس . الحموي : ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي (ت ٦٦٢ هـ / ١٢٦٤ م) ، معجم البلدان ، مطبعة دار صادر ، (بيروت ، ١٩٥٥) ، ج٥ ، ص١١٩ .

٦- مالقة:مدينة على شاطئ البحر،عليها سور صخر والبحر في قبليها، وهي حسنة عامرة كثيرة الديار.الحميري،الروض المعطار، ص٥١٧ .

٧- لسان الدين ابن الخطيب : ابو عبد الله محمد بن عبد الله السلماني (ت ٧٧٦هـ) ، الاحاطة في اخبار غرناطة ، تحقيق : محمد عبد الله عنان (القاهرة ، ١٩٧٣) ، ج ١ ، ص ١١٥-١١٦ ؛ عنان : محمد عبد الله ، نهاية الاندلس وتاريخ العرب المنتصرين ، مطبعة لجنة التأليف والنشر (القاهرة ، ١٩٦٦ م) ، ص٥٥ .

٨- عنان ، نهاية الاندلس ، ص٥٩ .

٩- هو ابو عبد الله محمد بن محمد بن يوسف الملقب بالفقيه لعلمه وتقواه ، كان مولده بغرناطة سنة (٥٣٣هـ /١٢٣٥م) وهو الذي رتب رسوم الملك للدولة النصرية ووضع ألقاب خدمتها ، ونظم دواوينها وجبايتها ، وكان يتمتع بالكثير من الخلال الحسنة من قوة العزم ، وبعد الهمة

١٠- وسعة الأفق ، والبراعة السياسية وكان عالما أديبا يؤثر مجالس العلماء والأدباء . لسان الدين ابن الخطيب ، الإحاطة ،ج١، ص٥٦٥.

١١- الحجي ، التاريخ الاندلسي ، ص٥٣٦ .

١٢- ينظر : ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد المغربي (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر ، مطبعة مؤسسة الاعلمي للمطبوعات (١٣٩١هـ /١٩٧١م) ، ج٤ ، ص٣٧٠ -٣٩٣ ؛ المقري : شهاب الدين احمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١هـ)، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب ، تحقيق : احسان عباس ، مطبعة دار صادر ، (بيروت ، ١٩٦٨م) ،ج ١ ، ص٤٤٩ – ج٤ ، ص٣٨٥ .

١٣- الجزيرة الخضراء:مدينة أندلسية تقع في أقصى الجنوب قرب جبل طارق،كانت محطة استراحة للمقاتلين العرب العابرين من المغرب الى الأندلس. الحميري : ابو عبد الله محمد بن عبد المنعم ، صفة جزيرة الأندلس منتخبة من الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق : ليفي بروفنسال ، (د : ت) ، (القاهرة ، ١٩٣٧م) ، ص٧٣ -٧٤ .

١٤- لسان الدين ابن الخطيب : ابو عبد الله محمد ابن عبد الله السلماني (ت ٧٧٦هـ) ، اعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام نشر تحت عنوان تاريخ اسبانيا الإسلامية ، تحقيق : ليفي بروفنسال ، مطبعة دار الكشوف (بيروت ، ١٩٥٦ م) ، ص٣٩٠ ؛ ابن ابي زرع : ابو الحسن علي بن عبد الله (كان حيا قبل عام ٧٢٦هـ / ١٣٢٥م) ،الانيس المطرب

١٥- بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، مطبعة دار المنصور للطباعة ، (الرباط ، ١٩٧٢ م) ، ص٣٢٩ .

١٦- الحجي ، التاريخ الاندلسي ، ص٥٣٩ .

١٧- ابن خلدون ، العبر ، ج ٧ ، ص٧٧١ ؛ لسان الدين ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ٢ ، ص١٦ .

١٨- لسان الدين ابن الخطيب: ابو عبد الله محمد ابن عبد الله السلماني (ت ٧٧٦هـ) ،اللمحة البدرية في الدولة النصرية ،(بيروت، ١٩٧٨م)، ص :٦٦ ؛ مكي : محمود علي ، تاريخ الاندلس السياسي ، بحث في كتاب الحضارة العربية الاسلامية في الأندلس ، تحرير: د- سلمى الخضراء،مركز دراسات الوحدة العربية،(بيروت،١٩٨٨م) ، ص٥٥ .

١٩- سبته : مدينة عظيمة على الخليج الرومي ، وهي تقابل الجزيرة الخضراء ، والبحر يحيط بسبته من جميع جهاتها . الحميري ، الروض المعطار ، ص٣٠٣ .

٢٠- فرحات : يوسف شكري ،غرناطة في ظل دولة بني الأحمر، (بيروت ، ١٩٨٢م)، ص٤٠ .

٢١- لسان الدين ابن الخطيب ، اللمحة البدرية ، ص٩٣ – ٩٤ .

٢٢- الحجي ، التاريخ الاندلسي ، ص٥٤٣ .

٢٣- طريف : هي جزيرة على البحر الشامي في اول المجاز المسمى بالزقاق ويتصل غربها ببحر الظلمات , وهي مدينة صغيرة على سور تراب , ويشقها نهر صغير , ومن طريف الى الجزيرة الخضراء ثمانية عشر ميلا . الحميري , الروض المعطار , ص ٣٩٢ .

٢٤- لسان الدين ابن الخطيب، اللمحة البدرية ، ص١٠٦؛ ابن خلدون، العبر ، ج ٤ ، ص ٣٧ ؛ المقري، نفح الطيب،ج١ ، ص٤٥٢ .

٢٥- فرحات ، غرناطة في ظل بني الأحمر ، ص٥٢ .

٢٦- فرحات ، المرجع نفسه ، ص ٥٥ .

٢٧- العتبي : محمد سعيد رضا علو، تاريخ المغرب والأندلس في العصر الإسلامي ، مطبعة دار الكتب ،(بغداد ، ٢٠٠٢م) ، ص٥٦٦ .

٢٨- عنان ، نهاية الاندلس ، ص ١٩١-١٩٢ .

٢٩- حومد : اسعد ، محنة العرب في الاندلس ، مطبعة المؤسسة العربية للنشر ، (بيروت ، ١٩٨٨م) ، ص ١٢٧ .

٣٠- عنان ، نهاية الاندلس ، ص : ١٩٥ .

٣١- وهي ابنة السلطان الأيسر عبد الله بن محمد بن يوسف وزوجة السلطان الحسن علي بن سعد ، سميت بعائشة الحرة تميزا لها عن الجارية الرومية المعروفة باسم ثريا ،وكانت عائشة وافرة

العزم والشجاعة لم تستسلم الى قدرها وكانت طموحة تسعى للحصول على السلطة لولدها ابو عبد الله الصغير .عنان ، نهاية الأندلس ، ص١٩٥-١٩٦.

٣٢- المقري ، نفح الطيب ،ج٢ ، ص ٦٠٧ -٦٠٨ .

٣٣- مؤلف مجهول ، نبذه العصر في انقضاء دولة بني نصر وهو كتاب آخر ايام غرناطة ، تحقيق : محمد رضوان الداية ، مطبعة دار النشر، (دمشق ، ١٤٠٤ هـ) ، ج:١، ص:٤٥ – ٥٠ .

٣٤- المقري ، نفح الطيب ،ج : ٢ ، ص : ٦٠٧ – ٦٠٨ .

٣٥- بنو سراج من اعرق الأسر الأندلسية،يرجع أصلهم الى مذحج وطئ من البطون العربية العريقة التي وفد بنوها الى الأندلس منذ الفتح،وكان منزلهم بقرطبة وقبلي مرسية،وكانوا في غرناطة من أعظم ساداتها، وكانوا أنداد للعرش والسلاطين. المقري ، نفح الطيب ،ج١، ص١٣٨ .

٣٦- وادي آش : مدينة قريبة من غرناطة كبيرة خطيرة , ينحط نهرها من جبل شلير وهو في شرقيها وعلى ضفته ولها عليه ارحاء لاصقة بسورها , ولها بابان شرقي على النهر وغربي على خندق . الحميري ، الروض المعطار , ص٦٠٤ .

٣٧- عنان ، نهاية الاندلس ، ص٢٠٠ -٢٠١ .

٣٨- الحامة:قلعة حصينة شامخة بجزيرة صقلية،وهي من احسن البقاع والبحر على ثلاثة اميال منها.الحميري، الروض المعطار ، ص٢٠٠ .

٣٩- مؤلف مجهول ، نبذة العصر ،ج١، ص٥٦؛ المقري ، نفح الطيب ،ج٢ ، ص٦٠٩ .

٤٠- حومد ، محنة العرب ، ص١٣٠ .

٤١- لوشة : من إقليم البيرة بينهما ثلاثون ميلا . الحميري ، الروض المعطار ، ص٥١٣ .

٤٢- مؤلف مجهول ، نبذة العصر ،ج١ ، ص٦٠ .

٤٣- عنان ، نهاية الاندلس ، ص٢٠٢ .

٤٤- حومد ، محنة العرب ، ص١٣١ .

٤٥- المقري ، نفح الطيب ،ج٢ ، ص٦٠٧ .

٤٦- مؤلف مجهول ، نبذة العصر،ج١، ص٦٧ ؛ حتامله : محمد عبده ، محنة مسلمي الاندلس، (عمان ، ١٩٧٧م)، ص٢٢ .

٤٧- مؤلف مجهول ، نبذة العصر ، ج١ ، ص ٦٧ .

٤٨- المنكب:مدينة حسنة متوسط كثيرة مصايد السمك وبها فواكه جمة,من المنكب الى غرناطة اربعون ميلا.الحميري,الروض المعطار، ص٥٤٨-٥٤٩ .

٤٩- مؤلف مجهول ، المصدر نفسه ،ج١ ، ص٦٨ .

٥٠- حومد ، محنة العرب ، ص١٣٣ .

٥١- دوبلا : من الدبل والدبلة وهي الكتلة من الشيء.الزاوي: الطاهر أحمد ، مختار القاموس ، مطبعة الدار العربية للكتاب ، ١٩٨٣م، ص٢٠٢ .

٥٢- عنان ، نهاية الاندلس ، ص٢٠٥ .

٥٣- بسطة : مدينة أندلسية تقع بالقرب من وادي آش ، وهي متوسطة المقدار حسنة الوضع عامرة آهلة حصينة ذات اسوار ، وهي من كور جيان . الحميري , الروض المعطار , ص١١٣ .

٥٤- المقري ، نفح الطيب ،ج ٢ ، ص٦١١ .

٥٥- عنان ، نهاية الاندلس ، ص٢٠٥ ؛ حومد ، محنة العرب ، ص١٣٤ .
٥٦- المقري ، نفح الطيب ،ج٢ ، ص٦١١ .
٥٧- المقري ، المصدر نفسه ،ج٢ ، ص٦١١ .
٥٨- عنان ، نهاية الاندلس ، ص٢٠٧ .
٥٩- حومد ، محنة العرب ، ص١٣٤ – ١٣٥ .
٦٠- عنان ، نهاية الاندلس ، ص٢١٠ .
٦١- عنان ، المرجع نفسه ، ص٢١١ .
٦٢- المقري ، نفح الطيب ،ج٢ ، ص ٦١٢ .
٦٣- سورة التوبة ، الآية : ١٠ .
٦٤- مؤلف مجهول ، نبذة العصر ،ج١ ، ص ٩٠ .
٦٥- مؤلف مجهول ، المصدر نفسه ،ج١ ، ص٩٥ .
٦٦- المقري ، نفح الطيب ،ج٢ ، ص ٦١٣ .
٦٧- مؤلف مجهول ، المصدر نفسه ،ج١ ، ص١٠١ .
٦٨- المقري ، نفح الطيب ،ج٤ ، ص٥٢٢ .
٦٩- المقري ، المصدر نفسه ،ج٤ ، ص٥٢٢-٥٢٤ .
٧٠- فاس : مدينة عظيمة ، وهي قاعدة المغرب ويسكن حولها قبائل البربر لكنهم يتكلمون اللغة العربية ، واليها تشد الركائب وتقصد القوافل ويدور عليها سور عظيم . الحميري ، الروض المعطار ، ص٣٤ .
٧١- حومد ، محنة العرب ، ص٩٥ .
٧٢- مثل قرطبة ، وبلنسية ، واشبيلية ، وبطليوس .
٧٣- حتي : فليب ، تاريخ العرب المطول ، مطبعة الغندور ، (القاهرة ، ١٩٦٥م) ، ج٢ ، ص٦٥٥ ؛ المعاضيدي : خاشع ، تاريخ الدولة العربية في الاندلس (٩٢-٨٩٧هـ / ٧١١-١٤٩٢م) ، مطبعة دار النشر (بغداد ،١٩٨٦م) ، ص١٩٢ .
٧٤- جبال شلير : هو جبل الثلج المشهور في الاندلس ، وهو جبل البيرة ، وهو متصل بالبحر المتوسط منتظم بجبل ريّة . الحميري , الروض المعطار ، ص٣٤٣ .
٧٥- المقري ، نفح الطيب ،ج٤ ، ص٥٢٤ ؛ ذنون : عبد الواحد ، حركة المقاومة العربية في الاندلس بعد سقوط غرناطة ، دار الشؤون الثقافية العامة ، (بغداد ، ١٩٨٨م) ، ص٨ ،٩ .
٧٦- المقري ، نفح الطيب ،ج٤ ، ص ٥٢٥
٧٧- الصلابي:علي محمد،التاريخ الإسلامي،(القاهرة،٢٠٠٥م)،ج٢، ص٦٢٧ .
٧٨- المقري ، نفح الطيب ،ج٤ ، ص ٥٢٥ .
٧٩- مؤلف مجهول ، نبذة العصر ،ج ١ ، ص١٢٠ .
٨٠- السلاوي : ابو العباس احمد بن خالد الناصري(١٣١٥هـ / ١٨٩٧م)،الاستقصا لاخبار دول المغرب الأقصى ، تحقيق وتعليق : جعفر الناصر ومحمد الناصر ، مطبعة دار الكتاب (البيضاء ، ١٩٥٤- ١٩٥٥) ، ج٤ ، ص١٠٤ .
٨١- عنان ، نهاية الاندلس ، ص٢٤٤ .

٨٢- المقري ، شهاب الدين احمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١هـ)، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ، تحقيق : مصطفى السقا وآخرون ، (القاهرة ، ١٩٣٩ -١٩٤٠م)،ج١ ، ص٧٦ ؛ نفح الطيب ، ج٤ ، ص٥٢٥ – ٥٢٨ ؛ مؤلف مجهول ، نبذة العصر ،ج١ ، ص١٢٤-١٢٥ ؛ عنان ، نهاية الاندلس ، ص٢٤٥-٢٥١ ؛ المعاضيدي ، تاريخ الدولة العربية في الاندلس ، ص١٩٣ .

٨٣- عنان ، نهاية الاندلس ، ص٥٤٤ .

٨٤- المقري ، نفح الطيب ، ج٤ ، ص ٥٢٥ .

٨٥- حتي ، تاريخ العرب ، ج٢ ، ص٦٥٨ .

٨٦- المقري ، أزهار الرياض ،ج ١ ، ص٦٨ ؛ حتامله ، محنة مسلمي الاندلس، ص٦٩ -٧٤ .

٨٧- حومد ، محنة العرب ، ص٩٥-٩٧ ؛ حتي ، تاريخ العرب ، ج٢ ، ص٦٥٨ .

٨٨- المقري ، نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٥٢٩ .